قواعد التدبر وضوابطه وتطبيقاته

بحث مقدم إلى الملتقى الثاني للتدبر الذي تنظمه الهيئة العالمية للتدبر تحت عنوان

" التدبر مناهج وبرامج"

أعده

د. حسين بن علي الحربي

عضو هيئة التدريس في جامعة جازان

عنوان المراسلة :

منطقة جازان . مدينة أبي عريش

ص.ب: (٣٠٠) الرمز البريدي : ٤٥٩١١

جوال : ٠٥٠٥٧٦٩٦٦٤

فاكس : ٣٢٥٦٩١١ / ٠٧

البريد الالكتروني : alharbi2000@gmail.com

ملخص الورقة

تضمن هذا البحث جانباً من التأصيل لمنهج تدبر القرآن الكريم ، بيَّن الباحث فيه مصطلحات البحث من خلاله الدلالة المعجمية، والدلالة الاصطلاحية عند أهل التفسير ، وحدد من خلالها مفهوم "قواعد التدبر" بأنها:ضوابط وأسس يتوصل بها إلى فهم المراد من ألفاظ القرآن الكريم ودلالات سياقاته الخفية، والاهتداء به .

وقد ركزت هذه الدراسة على بيان أركان تدبر القرآن ، وأنها ترجع إلى ثلاثة أركان : الركن الأول:المتدبِّر، وهو القائم بفعل التدبر، ويشمل المسلم وغير المسلم، والركن الثاني المتدبَّر، وهو القرآن الكريم، ولم يأمر الله تعالى عباده بتدبُّر شيء غير القرآن الكريم، والركن الثالث: أدوات التدبر، وهي لغة العرب التي جرت ألفاظ القرآن وسياقاته على سَنَنِها ، وحاولت وضع أُطر محددة لأسس تدبر القرآن في ثلاثة محاور:

الأول: الأسس المتعلقة بالجوانب الشخصية للمتدبِّر، والمتمثلة في حسن القصد، وحسن الاتباع، وحسن الفهم، والسلامة من الصوارف والحجب المانعة من تدبر القرآن.

الثاني: الأسس المتعلقة بالجوانب العملية في تعلم القرآن وتلاوته وتدبره، وذلك بأخذه منجماً، وترتيله ترسلاً، وإحضار القلب عند تلاوته، مع الأخذ بالوسائل المعينة على التدبر.

الثالث: الأسس المتعلقة بالجوانب العلمية للمتدبِّر، وأهمها: معرفة معاني الآيات القرآنية المتدبَّرة، وتحصيل العلوم التي عليها مدار الفهم الصحيح، وختمت الدراسة بأهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا ونبينا وقدوتنا محمد بن عبد الله ﷺ تسليماً كثيراً ، وبعد :

فإن حاجة الأمة إلى فهم كتاب الله تعالى وتدبره ماسة، فهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، أنزله الله تعالى هداية للخلق، وبشرى للمؤمنين ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٩] ، وقد حض الله تعالى على تدبر القرآن وتعقله فقال تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد:٢٤]، وقال تعالى:﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف:١ -٢]، فدل ذلك على أن القرآن كله قابل للفهم محلاً للتدبر، بل جعل الله تعالى التدبر والتذكر علة لإنزال القرآن فقال تعالى:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]، لذا كان الواجب على الناس جميعاً تدبر كتاب الله تعالى، والاهتداء بهداه، وفهم معانيه، والعمل به، فإنه من المعلوم "أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي : تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في مثل قول الله تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[الكهف:٥٧]، وقوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾[السجدة:٢٢]، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر ".[1]

وقد كان منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم في القرون المفضلة وخيار هذه الأمة من بعدهم

١) أضواء البيان(٣٥٨/٧) .

في الاستجابة لأمر الله تعالى ب تدبر القرآن منهجاً عملياً، فكانو ا يتدبرون القرآن ويعملون به ويستنبطون أحكامه وحكمه، ويتعظون بمواعظه دون الحاجة إلى وضع أطر نظرية لعملية التدبر، والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن ال سبب في ذلك منحصر في عدم الحاجة إلى جانب التنظير كحاجة العصور المتأخرة إليه، وقد حاولت في هذ ا البحث أن أرسم محددات لأهم الأ سس والضوابط التي يعتمد عليها تدبُّر القرآن و التي يحتاج إليها المتدبِّر في نفسه أو في نظره في آيات القرآن المتدبَّرة، من خلال الجوانب ا لشخصية، والجوانب العملية، والجوانب العلمية مع التعريج على بعض المقدمات واللواحق ذات العلاقة بالموضوع، أسأل الله تعالى أن ينفع نا بما علمنا وأن يعلمنا ما جهلنا، وأن يزدنا علماً، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وكتب

د.حسين بن علي الحربي

الأربعاء ١٤٣١/٤/٢٩هـ

تمهيد: تعريف مصطلحات البحث " قواعد، تدبر، ضوابط، تطبيقات "

أولاً: القاعدة .

القاعدة هي الأساس، وقواعد البيت أساسه، وفي التنزيل﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[البقرة:١٢٧]**، وهذا أمر حسيٍّ، واستعملت أيضاً في الأمور المعنوية ومن ذلك قواعد العلم .**[٢]

القاعدة في الاصطلاح: عرفت بمدلولها العام بأنها: حكم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته [٣] **.**

والقاعدة بهذا التعريف تشمل كل ما يطلق عليه قاعدة في العلوم كافة، ولا يلزم في القاعدة أن تنطبق على جميع الجزئيات بحيث لا يشذ عنها شيء إذ ذلك متعذر، ولكن يكفي فيها أن تشمل أغلب الجزئيات، وما خرج عن القاعدة خرج بدليل وهي قليلة بالنسبة لما يندرج تحت القاعدة .

ثانياً: التدبُّر.

أعاد الإمام ابن فارس(ت: ٣٩٥ هـ) **دلالة مادة هذا الفعل المكونة من (د ب ر) إلى قياس واحد في أغلب استعمالاته وهو: آخر الشيء، وخَلفهُ خلافُ قُبُلِهِ، ومنه قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾[الأنفال:١٦] وقوله تعالى :﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[الأنفال:٥٠] أي: قدامهم وخلفهم.(٤)**

والتدبر في الاصطلاح: دارت عباراتهم في بيان حد (التدبر) حول المدلول اللغوي، ومن أحسن ما قيل في ذلك ما حرره صاحب التحرير والتنوير الطاهر ابن عاشور (ت:١٣٩٣هـ) **فقال: والتدبر: التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني .**

---

٢) انظر اللسان(٣/٣٦١)، وتهذيب اللغة(١/٢٠٢).

٣) المدخل الفقهي العام للزرقا(٢/٩٤٦).

٤) معجم مقاييس اللغة(٢/٣٢٤. ٣٢٥) ، وينظر تهذيب اللغة (١٤/١١٠)، ولسان العرب (٤/٢٦٨) ، والمفردات ص٣٠٧، التعريفات ص ٨١ . مادة :(دبر)

وإنما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه بحيث كلما ازداد المتدبر تدبراً انكشفت له معان لم تكن بادية له بادىء النظر ...و(يدبروّا) صيغة تكلف مشتقة من فعل : دَبَر بوزن ضَرَب ، إذا تبع ، فتدبَّره بمنزلة تتبَّعه .

ومعناه: أنه يتعقب ظواهر الألفاظ ليعلم ما يَدْبر ظواهرها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة.اهـ[٥]

وقال في موضع آخر: فمعنى (يتدبرون القرآن) يتأملون دلالته، وذلك يحتمل معنيين :أحدهما: أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي: تدبر تفاصيله .

وثانيهما: أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق.اهـ[٦]

وعرفه الشيخ عبد الرحمن السعدي (ت:١٣٧٦هـ) **بقوله: "هو:التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك ".[٧]**

فالتدبر عندهم بحث ونظر وإعمال فكر وتأمل فيما يؤول إليه مدلول ألفاظ القرآن وسياقاته من معان لأن كلاً من اللفظ المفرد واللفظ داخل السياق والسياق بجملته له دلالات يتحقق بمجموعها الاهتداء الكامل بترك الكفر والدخول في الإسلام أو الاهتداء الجزئي بتحقيق ثمار التدبر المتعددة في جوانب إصلاح القلوب والجوارح، واستنباط الأحكام و الحِكم، وشهود أثر الأسماء و الصفات ونحوها، والانتفاع بذلك وتحويله إلى عمل قلب و عمل جوارح ، إذ انتفاع القلب والجوارح بالعلم المحصل من النظر في الآيات، هو ذلك العمل، فالتدبر يورث علماً وعملاً وتذكراً .

٥) التحرير والتنوير(٢٣/٢٥٢).

٦) التحرير والتنوير (٥/١٣٧)، وانظر الكشاف (١ / ٥٤٦) .

٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/١١٢) . وانظر الكشاف (١ / ٥٤٦)، ومفتاح دار السعادة (١/٢٢٦)، وتفسير البحر المحيط (٩ /١٣٥)، ومفتاح دار السعادة (١/٢٢٦)،والجامع لأحكام القرآن (١٥/١٩٢) .

ثالثاً: الضابط .

الضبط: لزوم شيء لا يفارقه، ويقال رجل ضابط: شديد البطش والقوة والجسم.[٨]

واختلفت عبارات العلماء في تحديد مصطلح الضابط فمنهم من استعمل الضابط بمعنى القاعدة، ومنهم من فرق بين القاعدة والضابط، فجعل القاعدة تجمع فروعاً من أبواب شتى في العلم . والضابط يجمع فروعاً من باب واحد أو مسألة واحدة .[٩]

ويمكن القول إن الضابط المراد في هذا البحث هو: معاني حافظة للمتدبر ومانعة له من الزلل والخطأ في تدبره للقرآن .

رابعاً: التطبيقات .

قال ابن فارس(ت: ٣٩٥ هـ): الطاء والباء والقاف أصلٌ صحيحٌ واحد، وهو يدلُّ على وضع شيء مبسوط على مِثله حتى يُغطِّيه. من ذلك الطَّبَق.[١٠]

ويمكن تعريف التطبيقات بأنها: فروع القاعدة أو الضابط التي ينطبق عليها حكم القاعدة .

خامساً: المركب الإضافي (قواعد تدبُّر القرآن وضوابطه) .

يمكن القول إن قواعد تدبُّر القرآن وضوابطه هي : ضوابط وأسس يتوصل بها إلى فهم المراد من ألفاظ القرآن الكريم ودلالات سياقاته الخفية، والاهتداء به .

٨) انظر تهذيب اللغة مادة ضبط (١٧١/٤).

٩) انظر الكليات ص ٧٢٨ ، وشرح قواعد الأصول لابن عثيمين ص ١١.

١٠) معجم مقاييس اللغة لابن فارس – (٣ / ٤٣٩).

المبحث الأول: أركان تدبر القرآن .

إن تدبر القرآن لا يتم إلا إذا اجتمعت ثلاثة أمور، وهي التي تحقق ماهية التدبر، و يمكن أن نطلق عليها أركان تدبر القرآن، وهي :

الركن الأول: المتدبِّر .

وهو القائم بفعل التدبر، ويدخل فيه المسلم وغير المسلم إذ كل منهما مأمور بتدبر القرآن لي تذكر بما فيه من هدايات، فالكافر مخاطب بتدبر القرآن لإرشاد نفسه إلى خالقها لتحقيق العبودية لله تعالى، وعند تأمل السياقات القرآنية الوارد فيها الأمر بتدبر القرآن نجد أنها جاءت في سياق توبيخ المشركين والمنافقين كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨١-٨٢]، وكقوله تعالى :﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون:٦٣-٦٨]، ومثلها قوله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٧-٢٩]، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ(٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٠-٢٤] ففي جميع هذه السياقات القرآنية التي ورد فيها الأمر بتدبر القرآن ورد في سياق خطاب الكفار أو المنافقين، الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولم يهتدوا بهديه لأنهم لم يتدبروه وقد أنكر الله تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن في عموم الآيات الواردة في هذا الشأن .

أما المسلمون فهم أهل التدبر، وتحتمل آية سورة ص توجه الخطاب لهم، و ما هدايتهم إلى الإسلام إلا ثمرة من ثمار تدبر القرآن، وما التزموه من توجيهات القرآن وما اعتبروا به من أمثاله، وما اتعظوا به من مواعظه فهو من ثمار تدبرهم للقرآن، وهم مطالبون بالاستمرار والثبات على تَ طَلُّب هدايات القرآن، وبهذا يعلم أن الأمر بتدبر القرآن متجه للناس كافة مؤمنهم وكافرهم ، علم اهم وعوامهم، فجميع الناس مأمورون بتدبر القرآن طلباً لهداياته كما جاء الخطاب في الآيات عاماً .

الركن الثاني: المتدبَّر .

وهو القرآن الكريم، ففي جميع المواضع التي ورد فيها الأمر بالتدبر اتجه الأمر بالتدبر إلى القرآن الكريم أو آياته كقوله:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾[النساء:٨٢ ، محمد:٢٤]، وقوله: ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:٢٩]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾[المؤمنون:٦٨] أي: القرآن [١١]، ولم يرد في كتاب الله تعالى الأمر بتدبر شيء غير القرآن، بينما ورد الأمر بالتفكر و التذكر والاستبصار والعقل ونحوها من المعاني للقرآن وغيره، فدعى إلى التفكر في آياته المتلوة في مثل قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة:٢١٩]، ودعى للتفكر في آياته المنظورة في مثل قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الرعد:٣]، ودعى إلى التذكر بآياته المتلوة في مثل قوله تعالى:﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا

١١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٣٩/١٢) ، وتفسير ابن كثير (٤٧٧/٥) .

﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النور:١]، ودعى إلى التذكر بآياته المنظورة في الكون في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٥٧]، ومثل ذلك السماع لآياته المتلوة في مثل قوله تعالى:﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[فصلت : ٤،٣]، والسماع لآياته المنظورة في قوله تعالى :﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[النحل:٦٥]، ومثل ذلك العقل لآياته المتلوة في مثل قوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:١٠]، والعقل لآياته المنظورة في مثل قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[المؤمنون:٨٠] ونظائر هذه الآيات كثير في كتاب الله تعالى .

الركن الثالث: أداة التدبُّر وهي لغة العرب التي نزل بها القرآن.

فقد جرت ألفاظ القرآن وسياقاته على سَنَنِ العرب في كلامها، وقد أخبر الله تعالى عن إنزال القرآن بلسان العرب في آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، ومنها قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[النحل:١٠٣]، ومنها قوله تعالى:﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥]، فأخبر الله تعالى في هذه الآيات ونظائرها أنه أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فكون القرآن عربياً من أعظم دواعي وأسباب عقله وفهمه وفقهه، ومن دواعي وأسباب إحداث العظة والعبرة، والبشارة والنذارة، وتحقيق التقوى لتاليه ومُتدبره، إذ عربة لسانه محققة لذلك كله كما جاء في الآيات الآنفة الذكر، فمن رام تدبره فلا بد له

من هذا اللسان، إذ لا يتصور من الأعاجم الذين لا يفهمون معانيَ الألفاظ العربية ولا دلالاتها أن يكونوا متدبرين للقرآن إذ ذ لك محال، فمعرفة العربية ودلالات ألفاظها وسياقات جملها ركن رئيس من أركان تدبر القرآن، وهي لابد لها من التعلم ، وإلا لأصبح التدبر نوعاً من الخرس والهذيان الذي ينزه عنه الق رآن، ولا يشترط العلم بكافة تفاصيل علوم العربية، وإنما المقصود أن يكون المتدبر قادراً على فهم مدلول ألفاظ اللسان العربي وجمله فيما يشترك فيه جمهوره م، وكلما اتسع علم المتدبر بالعربية وفنونها كان حظه من فهم القرآن وتدبره أوسع ، وذلك لجريان القرآن على لسان العرب وسننها في الكلام .

قال الإمام ابن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ): ومحالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشِد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: "اعتبر بما فيها من الأمثال، وادّكر بما فيها من المواعظ"– إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم، فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق، فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: "اعتبرْ بها" إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا؛ وإلا بمعنى الأمر –لمن كان بذلك منهُ جاهلا– أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكمَه وصُنوف عِبَرِه.اهـ (١٢)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(ت:٧٢٨هـ): لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدلّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه ، فمعرفة العربيّة التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ، فإن عامة ضلال أهل

١٢) جامع البيان(١/٨٢-٨٣) ط: شاكر

البدع كان بهذا السبب ، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك.اهـ[١٣]

وأخيراً بقي في هذه المسألة بحث وهو هل يمكن أن يتحقق التدبر الأمثل للقرآن من خلال ترجمة المعنى للناطقين بغير العربية ؟

والجواب عن هذه المسألة متعلق بمسألة أخرى وهي هل فعل التدبر متجه إلى النص القرآني لفظاً وسياقاً، أو متجه إلى معاني ألفاظ القرآن، ودلالات سياقاته ؟

والذي يتعين قوله في هذه المسألة أن فعل التدبر الذي أمر الله به في كتابه متجه إلى النص القرآني لفظاً وسياقاً لا إلى تدبر ا لمعاني التي استخرجها المفسرون من دلالات ألفاظ وسياقات النص القرآني، وإن كان معرفة المعنى معين على تدبر القرآن، والذي يظهر . والله أعلم . أن ترجمة معاني القرآن إلى لغات الناطقين بغير العربية قد تحقق شيئاً من التذكر بالقرآن، إذ تأدية جميع معاني اللفظ العربي في الترجمة لا يتحقق في أي لغة أخرى، والله أعلم .

المبحث الثاني: قواعد التدبر وضوابطه.

إن المنهج النبوي الذي ربى النبي ﷺ عليه صحابته ﷺ في أخذ القرآن وتعلمه وتلاوته وتدبرُّه أعظم المناهج التي استكملت الأسس التي يقوم عليها تحقيق تدبُّر القرآن ، ويمكن من خلال دراسة المنهج النبوي استخلاص الأسس والضوابط التي يقوم عليها تدبُّر القرآن الكريم، ومن أبرزها :

أولاً: الأسس المتعلقة بالجوانب الشخصية للمتدبِّر .

١) حسن القصد، فتدبُّر القرآن عبودية لله تعالى مفتقرة إلى الإخلاص وحسن التوجه لله تعالى كغيرها من العبادات كما أمر الله تعالى عباده بالإتيان به في جميع أعمالهم فقال :﴿ وَمَا

١٣) مجموع الفتاوى (١١٦/٧) .

﴿أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة : ٥]، وفي حديث عمر ﷺ المتفق عليه قال النبي ﷺ :" إنما الأعمال بالنيات "(١٤) فلحسن القصد أثره الظاهر في الا هتداء للحق والصواب من الأقوال والأعمال، وهذا هو زكاء النفس، وسلامة القلب، وحسن القصد عمل قلبي يتعلق به الفهم الصحيح للنص، فمن وقع في شِراك الفِرق وفهمها السقيم للنصوص، جعل اعتقاده حاكماً على القرآن، وفهمه وتدبره حسب ما اعتقد .

٢) حسن اتباع القرآن .

ما أنزل الله القرآن إلا للإتباع والعمل به، وجعل التدبر طريق تحقيقه فقال تعالى :﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩]، وأثنى على المتبعين لآياته المستجيبين لتوجيهاته العاملين به بقوله :﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[الفرقان:٧٣]، أي: " والذين إذا ذكَّرهم مذكِّر بحجج الله لم يكونوا صما لا يسمعون، وعميا لا يبصرونها، ولكنهم يِقَاظُ القلوب،فهماء العقول، يفهمون عن الله ما يذّكرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذانا سمعته، وقلوبا وعته"(١٥) وقال أهل التفسير في تفسير قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[البقرة: ١٢١]: يتبعونه حق اتباعه.(١٦) قال ابن مسعودﷺ(ت:٣٢هـ): "والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته: أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله".(١٧)

وقد كان ذلك منهجاً لأصحاب النبي ﷺ في أخذهم للقرآن فقد قرنوا العمل بالعلم فعن أبي عبد الرحمن السلمي(ت:٧٤هـ) قال: "حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أنهم كانوا يستقرِئون من النبي

١٤) البخاري، حديث (١).

١٥) جامع البيان (١٩/٥١) .

١٦) انظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٣٠، وجامع البيان (٢/٥٦٦) ط: شاكر .

١٧) رواه ابن جرير في جامع البيان(٢/٥٦٧) ، أثر رقم (١٨٨٦)، وانظر تفسير ابن أبي حاتم (١/٢١٨) .

ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعًا" [١٨] فالعمل بالقرآن هو المقصود من إنزاله؛ لذا كان الجزاء العظيم للعاملين به، كما في حديث النواس بن سمعان ﷺ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: "يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران". وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهنَّ بعد. قال:" كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شَرقٌ، أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما".[١٩] وإن ترك العمل بالقرآن وعدم اتباعه من أعظم أنواع هجره، ومما يدخل في مدلول قول الله تعالى :﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].[٢٠] .

٣) حسن الفهم مناط التدبر الأمثل للقرآن، وهو هبة من الله تعالى لمن أراد من عباده، وقد أخرج البخاري عن أبي جحفة قال : سألت علياً ﷺ هل عندكم من النبي ﷺ شيئ سوى القرآن فقال :لا،والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يعطيه الله تعالى رجلاً في القرآن"[٢١]وقد دعى النبي ﷺ لابن عباس بالفقه في الدين، وأن يعلمه التأويل، وهذا كله راجع إلى تطلب حسن الفهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] . وإنما يرزق التدبر أهل العقول الصحيحة وتتحصل لهم ثماره من حسن الفهم لكتاب الله تعالى كما قال تعالى :﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو

١٨) أخرجه عنه ابن جرير في جامع البيان (١ / ٨٠) أثر(٨٢) ط: شاكر .

١٩) رواه مسلم ،كتاب صلاة المسافرين ، حديث (٢٥٢) .

٢٠) الفوائد ص ١٥٦.

٢١) البخاري، كتاب الجهاد والسير ، باب فك الأسير. الصحيح مع الفتح (١٩٣/٦)

﴿الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]، قال العلامة السعدي (ت:١٣٧٦هـ) في تفسير هذه الآية : أي : " أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب".(٢٢)

٤) السلامة من الصوارف والحجب المانعة لتدبُّر القرآن .

إن الإعراض عن تدبر القرآن وتفهمه من أظهر أنواع هجره، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[الفرقان:٣٠] قال ابن القيم (ت:٧٥١هـ): هجر القرآن أنواع... الرابع : هجر تدبره وتفهمه ، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .اهـ (٢٣)

وكلما كان العبد شرود القلب، متعلقاً بالشواغل، بعيداً عن آداب التالي، ضعيف التوكل على ربه متلبساً بالمعاصي أو البدع كان عن فهم و تدبر القرآن أبعد، وهذه أمهات أنواع الصوارف التي يحصل بها انغلاق القلب عن فهم القرآن وتدبره، وبعض هذه الصوارف يعود إلى أخذ القرآن وطريقة تلاوته ووقتها، وبعضها يعود إلى القلب وما أشرب من رأي أو نحلة، أو ما تعلق به من شهوات النفس ونزغات الشيطان، أو ما يرد عليه من شواغل الدنيا وسخب الحياة، أو ما طُبعت عليه قلوب بعض خلقه من الكفر والنفاق فكان جزاء الله تعالى لهم أن طبع على قلوبهم وختم عليها، أو طمس عليها، أو حرمها فهم لذيذ خطابه وفقهه. نسأل الله العافية. فمن أبرز هذه الصوارف والحجب:

أ) اعتقاد رأي أو نحلة أو بدعة، وجعلها أصلاً يفهم القرآن وفقها، ويفسر عليها ، فهذا من أعظم الحجب عن فهم وتدبر القرآن فهماً وتدبراً صحيحاً ، فقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أقوام أعرضوا عن الهدى بسبب إتباعهم لما كان عليه آباؤهم من الضلال كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا

٢٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦/٤١٨) .

٢٣) الفوائد ص ١٥٦.

﴿يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[لقمان:٢١]، ونحوها من الآيات .

قال ابن القيم (ت:٧٥١هـ) في معرض حديثه عن قصور فهم المعتزلة لكلام الله قال : ومن أجل ما تقدم من قصور معنى النفي في (لن) وطوله في (لا) يعلم الموفق قصور المعتزلة في فهم كلام الله حيث جعلوا (لن) تدل على النفي على الدوام، واحتجوا بقوله: ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾[الأعراف:١٤٣] وعلمت بهذا أن بدعتهم الخبيثة حالت بينهم وبين فهم كلام الله كما ينبغي، وهكذا كل صاحب بدعة تجده محجوبا عن فهم القرآن.اهـ[٢٤]

وقال ابن عاشور (ت:١٣٩٣هـ): أن يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نحلة فيتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجر شهادة القرآن لتقرير رأيه ويمنعه عن فهم القرآن حق فهمه ما قيد عقله من التعصب عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه.اهـ[٢٥]

ب) تعلق القلب بما ورد عليه من شهوات النفس وملذاتها المحرمة وهواها، ونزغات الشيطان، وشواغل الدنيا وسخب الحياة، فهي من أعظم الحجب عن فهم القرآن وتدبره والانتفاع به ، وفي الصحيح من حديث حذيفة ﷺ (ت:٣٦هـ) قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول " تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر: أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما

٢٤) بدائع الفوائد (١ / ٩٦) .

٢٥) التحرير و التنوير (١ / ٣١) .

أشرب من هواه".[٢٦] وهذه النكت التي تنكت في قلب العبد نتيجة مقارفة المعاصي التي هي حجب تحجبه عن تدبر القرآن وفهمه والانتفاع به .

قال ابن القيم (ت:٧٥١هـ) في ثنايا كلامه عن الغناء: فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء، فمن خواصه: أنه يلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبداً، لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة، ومجانبة شهوات النفوس، وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله، ويحسنه .اهـ[٢٧]

وقال الزركشيّ (ت:٧٩٤هـ): أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكر. واعلم أنّه لا يحصل للناظر فهمُ معاني الوحي حقيقةً، ولا تَظهر له أسرارُ العلم من غيبِ المعرفة، وفي قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كِبْر أو هوىً، أو حبُّ الدنيا، أو يكون غير متحقّق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمداً على قول مفسِّر ليس عنده إلا علمٌ بظاه ر، أو يكون راجعاً إلى معقوله، وهذه كلُّها حُجُبٌ وموانعُ، وبعضُها آكَدُ من بعضٍ.اهـ[٢٨]

ت) الحيلولة بين القلوب والانتفاع بالقرآن بسبب ما قام بها من كفر ونفاق، فيحجب الله عنها فهم القرآن وتدبره والاهتداء به بما كسبت أيديهم، وقد "أخبر سبحانه أنه إنما يكون القرآن هدى للمتقين السليمة قلوبهم الزاكية نفوسهم، فقال :﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢] تخصيصاً لهم، كما بين هذا الاختصاص حيث قال : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٣٨] فعم الجميع البيان الذي تقوم به الحجة، ثم قال :﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

٢٦) أخرجه مسلم ،كتاب الإيمان ،باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، حديث(٢٣١) .
٢٧) إغاثة اللهفان (١ / ٢٥١-٢٥٢) .
٢٨) البرهان في علوم القرآن - (٢ / ١٨٠-١٨١) .

﴾[آل عمران :١٣٨] فخصهم بذلك دون غيرهم، وكما قال :﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[فصلت:٤٤]."[٢٩]

وقد أخبر الله في كتابه عما قام بقلوبهم من الحجب والصوارف عن تدبر القرآن والاهتداء به، فأخبر تعالى بأنه جعل على قلوبهم أكنة فلا تفقه القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[الأنعام: ٢٥]، ونحوها من آي القرآن، وأخبر تعالى أنه ختم على قلوبهم كما في وقوله:﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾[البقرة: ٧]، وأخبر تعالى أنه طَبع على قلوبهم كما في قوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾[النحل:١٠٨]، وأخبر أن قلوبهم لا تفقه كما في قوله: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[الأعراف:١٧٩]، وأخبر أن قلوبهم لا تعقل كما في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦]، وأخبر أن قلوبهم مقفلة كما في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤]، وأخبر الله أنه أصمهم وأعمى أبصارهم في مثل قوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾[محمد:٢٣]، وأخبر تعالى أن قلوبهم متكبرة عن قبول الحق كما في قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[الأعراف:١٤٦] قال سفيان بن عيينة: "أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي"[٣٠]، وأخبر تعالى أن قلوبهم قاسية كما في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً

٢٩) قاعدة في فضائل القرآن لابن تيمية ص٦٥ .

٣٠) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١١٢/١٣) ، أثر رقم (١٥١٢٢) ط: شاكر .

﴾[المائدة: ١٣]، وأخبر تعالى أن قلوبهم مريضة كما في قوله : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾[البقرة: ١٠]، وأخبر تعالى أن قلوبهم لاهية كما في قوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[الأنبياء:٣]، ونحوها من السياقات القرآنية المخبرة بحال قلوب المعرضين عن القرآن وما قام بها من حجب .

ث) سوء الظن بالله تعالى وبرسوله ﷺ، فحال المعرضين عن تدبر القرآن يبادرون بإعراضهم عنه قبل سماعه وتفهمه، ويعتقدون أنه مختلق من قصص الأوائل، كما أخبر الله تعالى عن حالهم بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[النحل: ٢٤]، وأخبر عنهم بنحو قوله:﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[الأنفال:٣١]، و أخبر عنهم بنحو قوله : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[المطففين:١٣]، "أي : إذا سمع كلام الله من الرسول ﷺ يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل".[٣١]

ج) الظن بأن القرآن نزل في قوم قد خلو ا من قبل، وأن الواقع الذي يعيشه الناس في أي زمن غير داخل في مضمون خطاب القرآن، وهذا من أعظم الحجب التي تحجب العبد عن تدبر القرآن وفهمه والانتفاع به في حياته.

قال العلامة ابن القيم (ت:٧٥١هـ): أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحت القرآن، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقِبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.اهـ[٣٢]

٣١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨ / ٣٧٢) .

٣٢) مدارج السالكين (١ /٣٤٣) .

ح) أخذ القرآن جملة، فأخذه جملة من موانع تدبره وتفهمه، وهذا الصارف قد دعى إليه أهل الكفر عند تنزل القرآن منجماً على النبي ﷺ، وقد أنكر الله تعالى عليهم هذه الدعوة، وبين أن إنزاله منجماً يحقق تفهمهم وتدبرهم للقرآن وانتفاعهم به، ويحصل به تثبيت قلب النبي ﷺ فقال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾[الفرقان:٣٢] .

خ) العجلة في قراءة القرآن، فالعجلة في قراءة القرآن من الصوارف عن تدبره وتفهمه، فالعَجِل لا حظ له من فهمه وفقهه، وقد نهى الله تعالى نبيه ﷺ عن العجلة في أخذ القرآن وقراءته فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه:١١٤]، وقال تعالى:﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[القيامة:١٦-١٨] .

ثانياً: الأسس المتعلقة بالجوانب العملية في تعلم القرآن وتلاوته وتدبُّره .

١) أخذ القرآن منجماً، و على مكث كما أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ .

فقد أنزل الله تعالى القرآن منجماً لحكمة بالغة متعلقة بأخذه وإتباعه قطعاً كما قال تعالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦]، وكما قال تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان:٣٢]، قال الحسن(ت:١١٠هـ) في

قوله: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾: كان ينزل آية وآيتين وآيات جواباً لهم، إذا سألوا عن شيء أنزله الله جواباً لهم، وردّاً عن النبيّ ﷺ فيما يتكلمون به، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة".اهـ[٣٣]

وقال ابن جُرَيج(ت:١٥٠هـ): كان بين ما أنزل القرآن إلى آخره، أنزل عليه لأربعين، ومات النبي ﷺ لثنتين أو لثلاث وستين.اهـ[٣٤]

وعلى هذا المنهج في تلقي القرآن علَّ م النبي ﷺ صحابتهرضي الله عنهموكذا أخذه الصحابة فكانوا يأخذونه منجماً على عشر آيات لا يجاوزونها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، فعن ابن مسعودرضي الله عنه(ت:٣٢هـ) قال: "كانَ الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عَشْر آياتٍ لم يجاوزهُنّ حتى يعرف معانيهُنَّ، والعملَ بهنَّ".[٣٥]

وقال أبو عبد الرحمن السلمي(ت:٧٤هـ): "حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أنهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعًا" [٣٦]. فكان هذا المنهج في تلقي القرآن معيناً على تدبره وتفهمه واتباعه.

٢) الترسل في قراءة القرآن وترتيله.

فقد أمر الله تعالى بالترتيل والترسل في القراءة من أجل تحقيق التدبر الأمثل للقرآن ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فمن أجل التدبر أمر الله بالترتيل في قوله :﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾[المزمل:٤].اهـ[٣٧]، فللتدبر لا يكون إلا مع القراءة المترسلة، والآية تضمنت تعليم النبي ﷺ وتعليم أمته كيف يقرؤون القرآن قراءة تدبر وتفهم وانتفاع ، وكذلك أنزله الله تعالى فقال:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ

٣٣) أخرجه عنه ابن جرير في جامع البيان (١١/١٩) .
٣٤) أخرجه عنه ابن جرير في جامع البيان (١١/١٩) .
٣٥) أخرجه عنه ابن جرير في جامع البيان (١ / ٨٠) أثر(٨١) ط: شاكر .
٣٦) أخرجه عنه ابن جرير في جامع البيان (١ / ٨٠) أثر(٨٢) ط: شاكر .
٣٧) قاعدة في فضائل القرآن لابن تيمية ص ٦٨ .

جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢] قال الحافظ ابن كثير(ت:٧٧٤هـ) في تفسير هذه الآية : أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رضي الله عنها(ت:٥٨هـ): كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها.[٣٨] وفي صحيح البخاري عن أنسﷺ (ت:٩٣هـ): أنه سُئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: " كانت مداً، ثم قرأ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يمد بسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم"[٣٩].اهـ[٤٠]

وقد كان النبي ﷺ خير المتدبرين لكتاب الله تعالى ، فعن حذيفة بن اليمان ﷺ(ت:٣٦هـ) قال: (صليتُ مع النبيِّ ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلتُ: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلتُ: يصلِّي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسِّلا، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعَوَّذ ...)[٤١]

وعلى ذلك كانت قراءة خيار الأمة وسلفها ، يرتلون القرآن ويستعينون بذلك على تدبره وتفهمه لتنتفع القلوب به، وأخبارهم في ذلك كثيرة .

وعن أبي جمرة (ت:١٢٨هـ)[٤٢] قال: قلت لابن عباس ﷺ (ت:٦٨هـ): إني سريع القرآن، إني أقرأ القرآن في ثلاث، قال : لأن اقرأ البقرة في ليلة أتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأه كما تقرأ .[٤٣]

٣٨) أخرجه مسلم ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث (١١٨) ، عن حفصة وبألفاظ مقاربة عن عائشة رضي الله عنها.

٣٩) أخرجه البخاري ،كتاب فضائل القرآن ، باب مد القراءة . انظر الصحيح مع الفتح (٧٠٨/٨).

٤٠) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٧٦/٨) ، وانظر فضائل القرآن له ص ٢٣٥ ، ٢٥٦.

٤١) أخرجه مسلم ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث (٢٠٣) .

٤٢)اسمه: نصر بن عمران، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة.تهذيب الكمال (٣٦٤/٢٩)

٤٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/٥) رقم(١٨٨٢) ، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص١٥٧.

ومثله قول ابن مسعود ﷺ(ت:٣٢هـ): لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذّ وه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة.(٤٤)

وقال ابن عطية الأندلسي(ت: ٥٤٢) في تفسير قوله تعالى:﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩] قال: وظاهر هذه الآية يعطي أنّ التدبُّر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذًا أفضل من الهذّ، إذ التدبُّر لا يكون إلا مع الترتيل.اهـ(٤٥)

٣) حضور القلب عند تلاوة القرآن وتدبره.

إن الانتفاع بالقرآن مرتبط بحضور القلب كما قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق : ٣٧] فكلما كان العبد لقلبه أجمع، وعن الشواغل أبعد، كان أقرب إل ى فهم وتدبر ما يتلو من كتاب الله، إذ القلب محل تفهم القرآن وتدبره، وعند تأمل قول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٩٧]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤] تظهر منزلة القلب إذ خصه الله تعالى بإنزال القرآن عليه، فكان قلب النبي ﷺ محلاً للقرآن، فكذلك الحال لمن أراد تفهم القرآن وتدبره والانتفاع به يجب أن يكون قلبه محلاً للقرآن بحضوره عند تلاوته وتدبره .

قال ابن القيم(ت:٧٥١هـ): قاعدة جليلة: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم ب هـ سبحانه منه إليه ، فإنه خطاب منه لك

٤٤) رواه البغوي في تفسيره (٢٥١/٨) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٨/٥) رقم(١٨٨٣-١٨٨٤).
٤٥) المحرر الوجيز (٢٩/١٤) .

على لسان رسوله ﷺ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧].اهـ (٤٦)

وقال الزركشيّ (ت:٧٩٤هـ): إذا كان العبد مصغياً إلى كلام ربه، ملقيَ السمع، وهو شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظراً إلى قدرته، تاركاً للمعهود من علمه ومعقوله، متبرّئاً من حوله وقوّته، معظّماً للمتكلَّم، مفتقراً إلى التفهم، بحالٍ مستقيم، وقلب سليم، وقوة علم، وتمكن سمعٍ لفهم الخطاب، وشهادة غيب ولجوء بدعاء وتضرعٍ، وابتئاسٍ وتمسكُنٍ، وانتظارٍ للفتحِ عليه من عند الفتّاحِ العليمِ، وليستعنْ على ذلك بأن تكون تلاوتُهُ على معاني الكلام وشهادة وصفِ المتكلّم، من الوعد بالتشويق، والوعيد بالتخويف، والإنذار بالشديد، فهذا القارئ أحسنُ الناس صوتاً بالقرآن، وفي مثل هذا قال تعالى:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[البقرة: ١٢١]، وهذا هو الراسخ في العلم، جعلنا الله من هذا الصنف ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].اهـ(٤٧)، وقد جمع الله تعالى ذلك في قوله :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤] فعلق فهم القرآن وتدبره على انفتاح القلب وحضوره كما دل عليه المفهوم، وعلق الانصراف عن فهم القرآن وعن تدبره على انغلاق القلب كما دل عليه منطوق قوله:﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أي :"أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعِبَر".(٤٨)

٤) الأخذ بالوسائل المعينة على تدبر القرآن .

٤٦) الفوائد ص ٥ .

٤٧) البرهان في علوم القرآن (٢ / ١٨١) .

٤٨) جامع البيان (٢٦/٥٧) .

ومن أبرز هذه الوسائل اقتران تدبر القرآن بالليل، ففي الليل سكون النفس واجتماع القلب بعكس النهار إذ تكثر شواغله و شوارده[٤٩]، كما قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[المزمل:٢-٦] قال الحافظ ابن كثير (ت:٧٧٤هـ): المقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش ... ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾[المزمل:٧].اهـ[٥٠]

وفي حديث حذيفة بن اليمان ﷺ(ت:٣٦هـ) قال: (صليتُ مع النبيِّ ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلتُ: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلتُ: يصلِّي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسِّلا، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ ...)[٥١]

وفي حديث أبي ذر ﷺ(ت:٣٢هـ) قال: قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يُرَدِّدُهَا، والآيةُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨].[٥٢] فهذه القراءة المترسلة في جوف الليل

٤٩) انظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٧١ .

٥٠) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٧٨/٨) ، وانظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٤١، وفضائل القرآن لابن الضريس ص ٢٧.

٥١) أخرجه مسلم ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث (٢٠٣) .

٥٢) أخرجه النسائي ،كتاب الافتتاح ، باب ترديد الآية (١٧٧/٢) ، وابن ماجة ،كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل (٤٢٩/١) ، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٤٤ ، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢١٨/١) وصحيح سنن ابن ماجة (٢٢٥/١) . وأخرج الترمذي نحوه من حديث عائشة في كتاب أبواب الصلاة ، باب ما جاء في قراءة الليل (٣١٠/٢) إلا أنها لم تذكر آية المائدة ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي(١٣٩/١) .

المقترنة بالصلاة حققت تدبراً ظهرت آثاره في تسبيح النبي ﷺ وسؤاله وتعوذه كما في حديث حذيفةﷺ(ت:٣٦هـ) وتكرار تلاوة آية المائدة حتى الصبح كما في حديث أبي ذرﷺ .

وقد وصف الله تعالى حال عباده من أهل الكتاب في معرض الثناء عليهم بقوله :﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[آل عمران:١١٣] فتضمنت الآية المِدحة لهم بتلاوة آيات الله آناء الليل، وفي هذا التنبيه على أثر الليل في تلاوة التالين بما لا يخفى .

ومن الوسائل المعينة على فهم وتدبُّر القرآن مدارسة القرآن الكريم ، وهو منهج نبوي حث عليه النبي ﷺ في قوله: "مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ" [٥٣] ففي هذا الحديث حث على مدارسة القرآن طلباً لهديته والتذكر به، وهي طريق لحبّه .

ثالثاً: الأسس المتعلقة بالجوانب العلمية للمتدبِّر .

١) معرفة معاني الآيات القرآنية المتدبَّرة .

ففهم المعنى باب عظيم للمتدبرين يلجون منه إلى كنوز القرآن وهداياته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية(ت:٧٢٨هـ): والذي يعين المتدبر على استخراج دره وجواهره، والاهتداء بأنوار بصائره علم التفسير الذي هو مفتاح باب فهمه، ومصباح أسباب علمه، والكفيل بفتح مقفله، والقبيل بشرح مشكله، والمهيمن على تفصيل مجمله، فإن تدبره واتباعه والعمل بما فيه لا يكون إلا بعد فهمه ومعرفة معانيه .اهـ [٥٤]

وقال ابن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ): وفي حَثِّ الله عز وجلّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات – بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو

٥٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، كتاب ، حديث رقم(١٤٥٧)

٥٤) قاعدة في فضائل القرآن ص ٦٩-٧٠ .

﴿الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]، وقوله:﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الزمر:٢٧-٢٨]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه- ما يدلّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه . لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: "اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام"- إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به . فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل ...فما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: "اعتبرْ بها" إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا .. اهـ [٥٥]

٢) تحصيل العلوم التي عليها مدار الفهم الصحيح لنصوص القرآن .

تدبر القرآن يرتكز على تحصيل علوم مهمة يتوقف على معرفتها الفهم الصحيح لمراد الله تعالى في كتابه والتي ينطلق منها المتدبِّر إلى تدبُّر القرآن الكريم، من أهمها:

أ) العلم بالقرآن الكريم ، وأوجه بيانه التي تكون من جهة القرآن نفسه أو قراءاته، فهو أعظم مصدر لبيان القرآن، فما أجمل في موضع فسَّر في موضع آ خر، وما اختصر في مكان فقد بسط في مكان آخر .[٥٦] فلا بد للمتدبِّر من استحضار نصوص القرآن لئلا يستنبط معنى من آية ويحيله إلى عقيدة أو عمل أوسلوك وهو معارض لنص من القرآن في موضع آخر .

ب) العلم بسنة النبي ﷺ وأحواله، فسنته ﷺ وأحواله مفسرة للقرآن وموضحة له، ومهمة النبيﷺ بيان القرآن كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]، وقد جاءت معظم الأحكام في القرآن الكريم كلية مجملة تحتاج إلى بيان وتفصيل، وقد احتوت السنة

٥٥) جامع البيان(١/٨٢-٨٣) ط: شاكر

٥٦) انظر مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣، وأضواء البيان(١/٦٧) .

على بيان النبي ﷺ للقرآن في أقواله وأفعاله وأحواله، وعنه ﷺ فيها صور متعددة من صور تدبُّر القرآن والعمل به، فلا يمكن فهم نصوص القرآن دون سنة النبي ﷺ، كما أنه لا يمكن العمل بالقرآن دون السنة، فلا بدّ للمتدبِّر في فهمه واستنباطه من القرآن من العلم بالسنة ليكون استنباطه وفهمه للقرآن وفق ما بينه النبي ﷺ غير خارج عن دلالات سنته في صور بيانها للقرآن .

ت) العلم بلغة العرب التي نزل بها القرآن، وأحوالهم، فإن فهم القرآن متوقف على معرفة دلالات ألفاظه وسياقاته العربية، إذ هو نزل بلغة العرب كما قال تعالى:﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٥]، فشرط قبول أي معنى يفهمه أو يستنبطه المتدبِّر من القرآن أن يكون موافقاً للسان العربي الأول الذي نزل به القرآن، وأن يقبل السياق القرآني هذا المعنى ولا يخالفه، وأن لا يخالف هذا المعنى عموم أدلة الشرع المطهر، فإذا تحقق ذلك فالمعنى المفهوم والمستنبط من النص صحيح مقبول، وما خرج عن ذلك فهو ضرب من التحريف . وقد أسلفت في مبحث أركان تدبر القرآن شيئاً من الكلام عن منزلة معرفة اللغة من تدبر القرآن بما أغنى عن إعادته .

ويلحق بذلك معرفة أحوال العرب وعاداتها في أقوالها وأفعالها وقت التنزيل، فالقرآن نزل بلغة العرب والمخاطبون به هم العرب، ومن دون معرفة أحوالهم لن يكون من الممكن فهم بعض آيات القرآن فهماً صحيحاً، فمعرفة أحوال العرب رافع للشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة . فإذا عُرف حال العرب قبل التنزيل في شأن الحج . مثلاً . اتضح المراد بأمر الله تعالى بإتمام الحج في قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[البقرة : ١٩٦] دون الأمر

بأصل الحج، وذلك لأنهم كانوا قبل الإسلام آخذين به، لكن على تغيير بعض الشعائر، ونقص جملة منها، كالوقوف بعرفة وأشباه ذلك مما غيروا، فجاء الأمربالإتمام لذلك .[٥٧]

ث) معرفة أسباب نزول القرآن .

فمعرفة أسباب النزول لازم لمن أراد فهم نصوص القرآن على وجه صحيح، إذ الجهل بها موقع في الإشكالات والاستنباط الخاطيء. قال الشاطبي(ت:٧٩٠هـ): معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن والدليل على ذلك أمران: أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذى يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها. ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة، فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بدّ .

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات وموردِ للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع ويوضح هذا المعنى ما روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي قال خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة فقال ابن عباس يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيم نزل فيكون لهم فيه رأي فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا فإذا اختلفوا اقتتلوا قال فزجره عمر وانتهره فانصرف ابن عباس ونظر عمر فيما قال فعرفه فأرسل إليه فقال أعد علي ما قلت فأعاده عليه فعرف عمر

٥٧) انظر الموافقات (٣/٣٥١) .

قوله وأعجبه. وما قاله صحيح في الاعتبار... وجاء رجل إلى ابن مسعود فقال تركت في المسجد رجلا يفسر القرآن برأيه يفسر هذه الآية ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[الدخان:١٠] قال: يأتي الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام . فقال: ابن مسعود من علم علما فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به الله أعلم إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[الدخان:١٠] إلى آخر القصة. وهذا شأن أسباب النزول فى التعريف بمعاني المنزل بحيث لو فقد ذكر السبب لم يعرف من المنزل معناه على الخصوص دون تطرق الاحتمالات وتوجه الإشكالات .اهـ[٥٨]

ج) العلم بتوحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، إذ بهذا العلم يوفق المتدبر في فهمه واستنباطه الموافق لمراد الله تعالى خاصة في أبواب توحيد الله تعالى، ويسلم من الوقوع في شَرَك التأويل المذموم، وموافقة المبتدعة في كثير من أقاويلهم التي حرفوا فيها نصوص القرآن والسنة، وأجروها على غير وجهها الصحيح .

ح) العلم بأدوات الاجتهاد والاستنباط، ومن أهمها : علم أصول التفسير، وعلم أصول الفقه، وعلم أصول الحديث، وعلم أصول اللغة، إذ على هذه العلوم مدار أدوات الاستنباط المؤهلة للنظر في النصوص، ولا يستغني المتدبِّر عن هذه العلوم لضبط نظره واستنباطه وتدبره للقرآن الكريم، فمن أهمل ضوابط وأدوات الاستنباط في هذه العلوم فإنه لا محالة واقع في الشبه والاشكالات ومزالق سوء الفهم .

خ) العلم بمواقع اتفاق السلف واختلافهم في فهم نصوص القرآن ، لأن الحق في بيان معنى الآية لا يخرج عن أقوالهم، وقد قال النبي ﷺ "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين

٥٨) الموافقات (٣/٣٤٧- ٣٥٠) .

يلونهم" الحديث [٥٩] ، فأخبر النبي ﷺ أن خير القرون قرنه مطلقاً، وذلك يقتضي تقديمهم في كل باب من أبواب الخير، وإلا لو كانوا خيراً من بعض الوجوه، فلا يكونون خير القرون مطلقاً، فلو جاز أن يخطئ الرجل منهم في حكم وسائرهم لم يفتوا بالصواب – وإنما ظفر بالصواب من بعدهم وأخطأوا هم – لزم أن يكون ذلك القرن خيراً منهم من ذلك الوجه، لأن القرن المشتمل على الصواب خير من القرن المشتمل على الخطأ في ذلك الفن، ثم هذا يتعدد في مسائل عديدة. ومعلوم أن فضيلة العلم ومعرفة الصواب أكمل الفضائل وأشرفها." [٦٠] ، فعلى المتدبِّر أن لا يخرج بفهمه واستنباطه وعمله عن فهم السلف للآية ، بل يسير وفق فهمهم ولا يضاد بفهمه واستنباطه ما كانوا عليه في فهم الآية مجتمين أو مختلفين .[٦١]

الخاتمة: وأخيراً بعد هذه الدراسة التأصيلية لمنهج تدبُّر القرآن، ووضع معالم لأبرز الأسس والضوابط التي يقوم عليها التدبر، وبيان العلوم التي يحتاجها المتدبِّر يمكن استخلاص النتائج التالية :

١) أن تدبر القرآن هو أعظم سبيل لنوال بركة هذا الكتاب العظيم، وتطلب هداياته.

٢) أن جميع الناس: المؤمن والكافر مخاطبون بتدبر القرآن الكريم طلباً لهدايات.

٣) أن منهج السلف الصالح في تعلم القرآن وأخذه هو المنهج الأمثل المحقق لمراد الله تعالى في هذا الباب . ولا يزال موضوع تدبر القرآن بحاجة إلى مزيد بحث ودراسة، ويوصي الباحث بدراسة م نهج السلف الصالح في تعلم القرآن وأخذه وتدبره، وتقو يم مناهج تعليم القرآن

٥٩) متفق عليه، البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – انظر الصحيح مع الفتح (٥/٧) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم (٢١٠، ٢١١، ٢١٢).

٦٠) انظر إعلام الموقعين (١٣٦/٤)

٦١) انظر قواعد الترجيح (٢٨٠/١) .

المعاصرة في ضوء منهج السلف، ليتحقق للدارسين التذكر بالقرآن، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً،،،